

## سقوط بغداد ودروسه

الكثير من اولك الذين يرون في الخطاب القومي بشكله التقليدي منقذاً للامة العربية و مشفياً لجراحها التي اخذ منها النزييف ما اخذ ، تمنوا ان تكون الدبابة التي اسقطت تمثال الرئيس العراقي في قلب بغداد معلنة بذلك نهاية حقبة زمنية استمرت 35 سنة ، ان تكون عراقية او عربية لكي يعفوا انفسهم من النظر الى انتهاك الحرمات على ايدي الامبريالية كما يسمونها . هولاء الذين صعب عليهم ان يشهدوا و بام اعينهم كيف يحرر العراق بايدي ملطخة بدماء اطفال فلسطين وكيف اصبحت بغداد تحت رحمة جيش الولايات المتحدة قبل ان تخضع لعمليات السلب ونهب على ايدي الصوص الذين لم تسلم حتى المكتبات من جشعهم وعبثهم .

ان سقوط بغداد الدرما تيكي وانهيار النظام العراقي السريع فاجا الكل حتى الغزاة فمع تصوراتهم لحرب خاطفة وسريعة لم تكن تقديراتهم تشير الى دخول بغداد ذات الخمسة ملايين نسمة بهذه السرعة، بغداد التي اكد لنا العراقيون بانها سوف ترغم المحتلين ان ينتحروا على اسوارها و بعد ما واجهت تلك القوات مقاومة شرسة في ام القصر تلك المدينة الصغيرة تيقن الكثيرون معركة بغداد ستعيد الى الازهان بطولات العرب وامجادهم التي تعودنا على قراءتها في كتب التاريخ .

مع كل الدروس التي حملتها لنا نكسة التاسع من نيسان - كما يحرص البعض على تسميتها - هناك رسالة بغاية الدقة والاهمية علينا ان نستخلصها من هذه الحرب وهي ان سقوط بغداد واحتلال العراق من قبل قوات التحالف دليل دامغ على عجز العرب وضعفهم المخزي امام التحديات والاحداث العالمية. هذا الوهن وهذا العجز الذي حاول العرب وبانظمتهم الشمولية و الاحادية الصوت التستر عليه واخفائه لكي لا تلمس الشعوب التي اصبحت ضحية الاولى لاشباع شهوة السلطة والهيمنة لحكامها الحقيقة المرة لطبيعة سلطاتهم التي كانت متمرسه في حجب الديمقراطية واحتكار السلطة و مصادرة الحريات .

ولكن ما غاب عن مناصري الخطاب القومي طيلة القرن الماضي هو تقييم الانجازات التي حصدها هذا الخطاب عندما تربع على عرش السلطة في دول عربية عديدة . لم يلتفت قط اي منهم على الاخفاقات المتتالية التي منيت بها حركتهم القومية بغضون العقود المنصرمة . لم يتسائل اولئك الذين وجدوا في النظام العراقي محررا لفلسطين لماذا لم تتحقق شعارات حزب البعث التي قامت الدينا ولم تقدها ك«الوحدة والاشتراكية و الحرية»؟

فليس من الصعب ان يرى المرئ كيف تمزقت الوحدة في ظل الخطاب البعثي فاصبحت الوحدة حلم بعيد المنال بفضل التوسع الذي مارسه النظام العراقي بعد ما كانت حديث الصباح والمساء . والحرية ذلك المفهوم الذي طالما حلم به العراقيين مشاطرين اخوتهم العرب في هذه الماساة، غابت عن الساحة تاركتنا ورائها الاستبداد والقمع والكبت الذي كان سيد الموقف ابان حكم القوميين . فكان للمعارض الذي لا يويد السلطة ثلاث خيارات لا رابع لهم : ان يختار المنفى ماوى لنفسه او يستضيفه السجن لمدة لا يعلم نهايتها الا الله او يكون القبر آخر مثواها . خيارات اسهلها مر . وكان فراغ السلطة الذي شهده العراق هو مؤشرا لتصنيفية المعارضة و استئصالها من جذور المجتمع ليكون العام مستضيفا ل3 ملايين عراقي .

لم تكن الاحوال الاقتصادية في اكثر الحكومات قومية افضل من وضعها السياسي فان الاشتراكية كانت فقط من اجل تسهيل الاستيلاء على الملكية الخاصة والتحكم بثروات البلاد وتوظيفها توظيفا فاسدا من اجل تلبية حاجة الاجتياحات التي لم تخلف غير الدمار والهزائم النكراء .

فليس من الطبيعي ان يطرح الانسان اسئلة موجلة حول جدوى وفاعلية الخطاب القومي التقليدي الذي تمسك به الانسان العربي فلم يجنى غير الويلات والاخفاقات المتكررة ؟ لم يحين الوقت لاعادة النظر في الفكر العربي وطرح مشاريع جديدة تتناغم مع الحاضر وتحديات المرحلة الراهنة والمستقبل ؟

ان هذه الامر لم يكن متاثرا فقط من سلوك السلطة وما تفرضه من تخلف على المجتمع بل هو مرهون بالروية التي يتمتع بها المثقف العربي . فاذا كان المثقف نفسه يهلهل لهذا الخطاب البائد فعلى الاسلام السلام .

نظرة سريعة للثورة الفرنسية و كيفية نضال الفرنسيين و تقديمهم تضحيات جسام في سبيل نيل الحرية والمساوة والاخاء بشانها ان ترشدنا الى موقعنا الثقافي و مستوى التنمية الثقافية في البلاد العربية .

فلنسال انفسنا اننا نستطيع ان نضحى من اجل مفهوم مثل الاخاء والمساواة بالقالي والنفيس ؟ او هل توجد اصلا لهذه المفاهيم مكانة في ثقافتنا العربية؟

على ساعدي - طهران «ali\_saa2000@yahoo.com»